الأبعاد السوسيولوجيّة في الصّحيفة السّجاديّة

د. ثريا بن مسميّة

المعهد العالي لأصول الدين/ الجامعة الزيتونية

المستخلص

تتجلّى أهمّ الأبعاد السّوسيولوجيّة في رسالة الإمام زين العابدين (عليه السّلام) من خلال إشارته على عبد الملك بن مروان بأن يطبع السّكة الخاصّة بالبلاد الإسلاميّة لمنافسة التّعامل الاقتصادي بالنّقود الرّومانيّة ولضمان الاستقلال عنه. وإذ تنازعت التّيارات الثّقافية الأمّة الإسلاميّة حتّى أنّ المجتمع تحت وطأة الشّعوبيّة، فإنّ الإمام زين العابدين (عليه السلام) أسّس حلقات خاصّة بالعلوم والقراءات في المسجد النّبوي. وهو ما سيشدّ من أزر القيم الإسلاميّة الخالصة، وسيُمتّن العُرى الاجتماعيّة بين المسلمين. ولا غرو في ذلك فقد أُشبع النّاس بالطّاقة الرّوحيّة النّابعة من العلوم والأخلاق. تلك الطّاقة المتدفّقة من الأدعية التّي تثبّت المسلم أمام نداءات الإغراءات والشّهوات والملذّات الدّنيويّة.

إنّ الإمام زين العابدين (عليه السّلام) هو الّذي يمثّل نموذج المصلح الاجتماعي المخلص لربّه. وقد كان يربط الحجر على بطنه من الجوع تأسّيا بجدّه الرّسول عليه وعلى آله أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم. وهكذا دأب المصلحين الّذين يرغبون في إصلاح مجتمعاتهم يبدؤون بأنفسهم حتّى يتأسّى بهم النّاس.

ولعلّ أبرز علامة تميّز المصلح الاجتماعي هي الدّعوة إلى الحياة على خلاف أهل الاستبداد السّياسي الدّاعين إلى الموت وإشاعة الخوف بين النّاس. وقد فاضت أدعية هذا الإمام (عليه السّلام) بكلّ ما يدعّم أركان الاجتماع من عُرى التّرابط عبر المحبّة وتقوى الله والورع والزُّهد. وهذه الورقة تروم الوقوف على مستويات الأبعاد السّوسيولوجيّة التّي تتضمّنها الصّحيفة السّجاديّة بمنهج وصفي تحليليّ.

الكلمات المفتاحية :الأبعاد السوسيولوجية، الصحيفة السجادية، الإصلاح الاجتماعي، التماسك الاجتماعي، التربية الروحية.

Sociological Dimensions in Al-Sahifa al-Sajjadiyya

Dr. Thouraya Ben Mesmia

The Higher Institute of Theology

Ez-Zitouna University

Abstract

The most prominent sociological dimensions in the legacy of Imam Zayn al-Abidin (peace be upon him) manifest in his advice to Abd al-Malik ibn Marwan to mint a distinct currency for the Islamic lands, aimed at competing with Roman coins in economic transactions and ensuring independence from them. Furthermore, as conflicting cultural currents fractured the Islamic nation—leaving society under the heavy strain of *Shu'ubiyya* (anti-Arab factionalism)—Imam Zayn al-Abidin (peace be upon him) established specialized circles for sciences and Quranic recitations in the Prophet's Mosque. This initiative fortified pure Islamic values and strengthened the social bonds among Muslims, as people became imbued with spiritual energy derived from knowledge and ethics. This flowing energy, stemming from supplications, anchors Muslims against the allurements of worldly temptations, desires, and pleasures.

Imam Zayn al-Abidin (peace be upon him) embodies the model of a social reformer devoted to his Lord. He would bind a stone over his stomach out of hunger, following the example of his grandfather, the Prophet (upon him and his family be the best prayers and purest peace). Such is the path of reformers who wish to rectify their societies; they begin with themselves so that others may follow their example.

Perhaps the most prominent hallmark of a social reformer is the call to life, in stark contrast to political despots who call to death and sow fear among the people. The supplications of this Imam (peace be upon him) overflowed with everything that reinforces the pillars of society through bonds of love, piety, righteousness, and asceticism. Using a descriptive-analytical methodology, this paper aims to examine the various levels of sociological dimensions contained within *Al-Sahifa al-Sajjadiyya*.
Keywords: Sociological Dimensions, Al-Sahifa al-Sajjadiyya, Social Reform, Social Cohesion, Spiritual Education.

المقدّمة

تشهد المجتمعات عبر تاريخها المستمر تموّجات وانخفاضات وانحدارات في المستويات السياسية والاجتماعيّة والثّقافيّة والأخلاقيّة، ولكن سنن الله في خلقه تقتضي أن يُبعث من حين إلى آخر من يجدّد الأوضاع الثّقافيّة والمعرفيّة باعتبارها رأس الأمور، لأنّ الأفكار النيّرة هي الّتي تغيّر الوعي. وإذا تغيّر الوعي جرّ وراءه السلوك إلى ما هو أفضل ويظهر الصّلاح، حينئذٍ، في تقوى الفرد والعائلة والمجتمع.

إنّ المجتمع عبارة عن سفينة تُقلّ على ظهرها جماعة من النّاس. وإذا كان ربّان هذه السفينة ماهرًا فسيسلك بالنّاس مسلك النّجاة حتّى وإنْ كان البحر هائجًا والعناصر ثائرة، وإنْ كان غير ماهر ولا قادر فسيسوق المركب إلى المهالك والغرق. وما من شكٍّ في أنّ الصّحيفة السّجادية تُعتبر كنز الرّبان وزاد المسافر نحو شواطئ السلامة الفردية والجماعية. إذ هي أدعية تستهدف صفاء الذّهن وطهارة النّفس وعمق المعرفة بخفايا الحياة، ودون ذلك يبقى المرء في بحر الظلمات من الجهل والبُعد عن الله تعالى.

إنّ المنازع الاجتماعيّة بارزة في أدعية الإمام (عليه السّلام) ما يعني أن نظرته متعلّقة رأسًا بهموم الأمة الإسلاميّة، وقد بدأت تغرق في الفتن والاضطرابات الاجتماعيّة والسياسيّة الّتي تتغذّى بالصّراعات المذهبيّة والعرقيّة.

1) مركزية البُعد الاجتماعي

إنّ أهمّ الكتابات هي الّتي تتجاوز الاهتمام بشؤون الأنا الضيّقة لتطال الاهتمام بالمصلحة العامّة وكلّ ما يهمّ النّاس. على أنّ التّركيز على ما يتعلّق بالأنا ليس دائمًا عملًا مذمومًا؛ لأنّ إصلاح الجماعة إنّما ينطلق بالضرورة من إصلاح الذّات. ولكنّ النّصوص الكبيرة وذات المنزلة المرموقة هي الّتي تتخطى العلاقة العمودية مع الله إلى العلاقة الأفقية مع النّاس، علمًا بأنّ ما يربط الأفراد بعضهم ببعض إنّما ظلّ العلاقة مع الله حيث تتجلّى قيم العدل والمساواة والمحبّة المتبادلة والأخلاق الاجتماعيّة. فالدّعاء شكل عمودي مضامينه إرساء المعاني الخالدة للحرّية الاجتماعيّة الّتي تبدو في الأسرة والدّولة. فالصّحيفة الّتي هي خلاصة الأدعية الصّادرة عن الإمام زين العابدين (عليه السّلام) والّتي أصبحت معروفة بزبور آل البيْت حافلة بمعالم النّهضة الاجتماعية. وهي تروم إعادة بناء الشخصية الإسلاميّة المتميّزة بالعدل والصلاح وتقوى الله. فدائرة النّظر لدى الإمام تتجاوز الفرد إلى الجماعة؛ لأنّ الّذي يَبيت ولا يهتم بأمر المسلمين ليس منهم. ولعلّ هذه القيمة هي الّتي حدت بالشيخ الطنطاوي (ت 1358هـ) صاحب التّفسير إلى القول: "ومن الشقاوة إنّا إلى الآن لم نقف على هذا الأثر القيّم الخالد في مواريث النّبوة وآل البيت (عليهم السّلام). وإنّي كلما تأملتها رأيتها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق". ولعلّ هذه المنزلة ذاتها هي الّتي دعت الإمام الخميني إلى الإشارات الواضحة لإعادة الاعتبار إلى الرّصيد الأخلاقي الّذي تتضمّنه الصّحيفة السّجادية[1]. فالدّعاء الخامس يحذر من الانحرافات الأخلاقيّة والاجتماعيّة. والأدعية بأسرها تدعّم قيمة التّقوى باعتبارها حلية الصالحين الّذين يرمّون البناء الاجتماعي ويسعون إلى تماسكه حيث تترابط الصلات الاجتماعيّة. وكلما كان الاتّصال بالله قويًا كانت عُرى الاتّصال الاجتماعي أكثر تماسكًا وتفاعلًا.

إنّ المعارف الإلهية توحيدا ونبوءة لا قيمة لها إذا لم تُترجم في تجارب وخبرات وسلوك في مجال الأسرة والمحيط الاجتماعي بصفة عامّة[2].

2) تجلّيات الأبعاد السوسيولوجية

إنّ أهمّ بعد اجتماعي يتجلّى في الصّحيفة السّجادية هو محاولة الإمام زين العابدين (عليه السّلام) القيام بمهمة النهوض بأوضاع الأمّة الإسلاميّة، إذ كانت هذه الأمة تتخبط في دماء المسلمين باستحلال الأنفس المحرمة صراحة في كتاب الله. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[3]. وهو تكالب على المناصب السلطانية. وقد كان شعار بني أميّة هو أنّ الغاية تبرّر الوسيلة ما أشاع الانتهازية والوصولية

[1] انظر خطبة الإمام الخميني بتاريخ 1997/12/4.

[2] انظر خطبة الإمام الخميني بتاريخ 1993/7/4.

[3] سورة الإسراء 17، الآية 33.

من أجل التمتّع بمباهج الحياة الزّائلة. وقد دفع أبناء الإمام علي (عليه السّلام) ضريبة موجعة. وقد طفحت الصّحيفة بما يطهّر الأنفس من هذه الأدران بالخوف من الله وخشيته والبكاء في حضرته، يقول الإمام زين العابدين (عليه السّلام): "وما لي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري". وانظر إلى المفارقة الاجتماعية بين تقي يبكي وفاجر يلهو. فقيمة الحياء تنعكس بصورة مباشرة في القيم الاجتماعية، إذ الخائف من الله يحرص حرصًا شديدًا على ضمان حقوق النّاس وسلامة حُرُماتهم. فالتّربية الرّوحية، بصفة عامّة، أساسية في تماسك الأواصر القائمة بين الأفراد على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وأعراقهم؛ لأنّ الله تعالى خلق النّاس وجعلهم عيالًا له، ومن يظلم أو يقتل واحدًا منهم فكأنما ظلم أو قتل النّاس جميعًا.

إنّ التّربية الّتي تنبع من الصّحيفة السّجادية تربية تنهض على الورع والكآبة البنّاءة الّتي تساعد على حبّ الحياة الصافية من الشوائب والمحرّمات. فالحياة المطلوبة من خلال الدّعاء لدى الإمام السّجاد (عليه السّلام) عمادها العلاقات الاجتماعية المنفتحة. فالحياة هبة من الله، وهي رحمة تزداد لذّة العبادة والرّجوع إلى الله باستمرار. ولذلك كانت المناجاة تدور حوْل هذه المعاني، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[4]. ففلسفة الاجتماع في الصّحيفة تروم الاستفادة من الحياة الدّنيا بالقدر الّذي يشجّع على التّعبد والتّقوى. وقد قال الإمام علي (عليه السّلام) ما يصوّر هذا المعنى تحديدا: "لا ينبغي على المرء أن يكون شاخصًا إلاّ في ثلاث: مرمّة للمعاش وتزوّد لمعاد ولذّة في غير محرّم".

إنّ الدّعاء يقوي النّفس ويشدّ من أزرها لتصبح أكثر انسجامًا مع مكوّنات المجتمع الإنساني بأسره مصداقا لقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[5]. فالمرء يبدأ بتطهير نفسه وترويضها على التقوى، فمن عرف نفسه فقد عرف ربّه. وهذه التّربية تستهدف الكمال الإنسانيّ رغبة في تحقيق الحضارة الكونيّة الخالية من الظلم والاستعباد حيث كشف الأسرار الطّبيعية والعلوم الإنسانيّة كعلم النّفس وعلم الاجتماع لمعرفة نواميس علم العمران البشريّ مستودع الأسرار الإلهيّة في خلقه. وتلك هي مقاصد المعارف الأفاقية. لقد رسخ الإمام زين العابدين (عليه السّلام) الدّعاء لاسترجاع الثقة الضرورية والرصيد الرّوحي اللاّزم لرأب الصّدع الحضاري الّذي بدأ يدّب في أوصال المجتمع الإسلاميّ الّذي بناه النّبي الكريم (صلى الله عليه وآله) حيث رأى المسلمون بأم أعينهم المساواة بيْن الأبيض والأسود والحر والعبيد والمرأة والرّجل. ولذلك دعا إلى نبذ الخوف والتردّد، يقول: " إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه ".

[4] سورة القصص 28، الآية 77.

[5] سورة فصلت 41، الآية 53.

إنّ التردّد والخوف من أهمّ الأمراض الاجتماعيّة والنّفسيّة الّتي يغرسها الظلم السياسيّ والاستبداد والجور، فهي أمراض تجعل المجتمع مشلولًا يتكوّن من ذوات مشوّهة متورّمة متأخرة عن العمل الصالح والإبداع، علمًا بأنّ المجتمع السّوي لا يمكن أن يُبنى بأياد ملوّثة أو مرعوبة.

إنّ المجتمع الّذي يريد الإمام (عليه السّلام) بناءه هو مجتمع نقيض لصورة المجتمع الّذي بناه بنو أميّة، مجتمع يقوم على إطلاق الأيادي في أموال المسلمين وأعراضهم وأنفسهم حيث الانشداد إلى الأرض والحياة الدنيا وإغماض العينين عن الآيات الّتي نزّلها الله في كتابه داعية إلى وضع الحياة الدنيوية في ميزان الآخرة.

إنّ الاجتماع الّذي بناه بنو أميّة اجتث الطموح والتقوى من أنفس النّاس، وجعل منهم آلات تُطيع وتُبرّر وتُزيّف الحقائق التّاريخية؛ لذلك تسبّبوا في القتل والسّفك وإشاعة الآثام وارتكاب المحرمات. ولكن الإمام (عليه السّلام) يُقوّي الإرادة الخلاقة؛ لأنّ الّذي يخشى النّاس ويتردّد هو خاسر بعيد عن النجاح وعن بلوغ القمّة الإنسانية. إنّ الإمام (عليه السلام) لم يكتفِ بذكر الأدوية اللاّزمة كالإرادة والفاعلية، وإنّما قدّم آلية تحقيق هذه الأهداف، وهي آلية الدّعاء الّذي يملأ الأنفس طاقة جبارة تحبّ الله والأنفس بقربه. فالمصلح الاجتماعيّ يستمد زاده وقوّته الفعّالة من سلاح الدّعاء رأس العبادة الكفيل بتغيير النّفس وتغيير النّفس شرط التّغيير الاجتماعيّ.

إنّ الصّحيفة كتاب مكتنز بآليات التّخاطب مع العقل الباطن، وهو الجسر المؤمّن للوصول إلى العقل الظّاهر. وخير للمرء أن يبدأ بتكوين عقله الباطني حتّى إذا سمحت الظروف الملائمة لتحقيق الأهداف المقصودة في المجال الواقعي بدت هذه الأهداف معاني مجسّدة في الحياة المعيشة. وعليه فإنّ بناء الذّات الإنسانيّة أعسر بكثير من بناء الحيطان والقصور، وإذا بُني الإنسان تمكّن من ترجمة أهدافه، يقول الإمام (عليه السّلام): "ما أضمر امرؤ في قلبه شيئا إلاّ وظهر على قسمات وجهه أو فَلَتات لسانه". فانظر إلى هذا التّحليل النّفسي الّذي يسبر أغوار الذّات وهو البناء المنطلق من الأساس وعلى خلافه بناء هاو على شفا جرف هار. وهو البناء المركز على الظّاهر الّذي يذبل بتقدّم الأعمار وإصابة الأمراض، تلك هي جدلية المظهر والجوهر باعتبار أنّ ما ينفع النّاس هو الّذي يمكث في الأرض. قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾[6] . فالجوهر رمز الفعل، والمظهر دليل الانفعال. والصّحيفة بحر زاخر من المعاني الاجتماعيّة المتلاطمة، مجتمع الحبّ والجمال. يقول الإمام (عليه السّلام): "يا إلهي من ذا الّذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلًا؟ ومن

[6] سورة الرعد 13، الآية 17.

ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا؟، اللهم إنّي أسألك حبّك وحبّ من يحبك وحبّ كلّ عمل يوصلني إلى قُربك".

إنّ اللّغة في الصّحيفة تربط المحراب بالمجتمع، فالدّين هو الحياة، والدّعاء ضارب بقوّة في الحركة الاجتماعية، والإمام متأثر بأمّه الزهراء. يقول الإمام الحسن (عليه السّلام): "ما رأيت أعبد من أمّي فاطمة، كانت إذا قامت إلى صلاتها لا تنفتل حتّى تَتَورّم قدمها من طول الوقوف بين يدي ربّها". إنّ التبتل والعبادة هما العنصران المشجعان على الارتماء في أحضان المجتمع، يقول الإمام الحسن نفسه (عليه السّلام): "وما رأيتها دعت لنفسها قط وإنّما تدعو للمؤمنين والمؤمنات، فأقول لها: أمّاه لِمَ لا تدعين لنفسك؟ فتقول: بُنيّ حسن: الجار ثمّ الدّار".

وعلى هذه الصّورة تربى أبناء الزّهراء، على الرّبط بين المحراب والمجتمع. والاجتماع هو محرار الإيمان. يقول زين العابدين (عليه السّلام) في هذا المجال: "اللهم إنني اعتذر لك من مظلوم ظُلم بحضرتي فلم أنصره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوَفره. ومن عيب مسلم ظهر لي فلم أسْتره. ومن كلّ إثم عرض لي فلم أهجره". فحقوق الآخرين جزء لا يتجزأ من المسألة الإيمانيّة. ولا غرابة في ذلك فالإمام (عليه السّلام) يقول في موضع آخر: "اللّهم وسدّدني لأن أعارض من غشني بالنّصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر". وهكذا تتمّ التّربية على الأخلاق الفاضلة في ضوء المعاملات مع خلق الله لا في مجال الرهبانية الزّائفة القائمة على الخلاص الفردي. إنّ العلاج الّذي تُقدّمه الصّحيفة علاج سمح سهل يجتث الأدواء من الأساس، يُفرغ الأنفس إفراغًا ويملؤها بالخير والحبّ ملاء.

فالدّعوة إلى تغيير ما بالذّات نزعة واضحة في الصّحيفة باعتبار أنّ النّفس الإنسانيّة هي مربط الفرس الّذي تدور حوله كل المحاور الاجتماعيّة. وإذا بُنيت هذه النّفس بناءً دينيًا صُلبًا، استطاعت مقاومة الاستبداد ومدّ جسور التّواصل مع الغير حتّى وإنْ كان مختلفًا. فالمجتمع الإسلامي بدأ ينزاح عن قيم الرّوح لصالح الانغماس في الواقع المعيش والمستسلم للغرائز، وهو ملمح جديد لم يكن مستساغًا أيام النّبي (صلى الله عليه وآله وسلّم). فالدّين طهارة والتزام بحكم الورع والتّقوى.

إنّ القيم الإسلامية الصّرفة تدفع إلى الفاعلية والإبداع والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث يتجلّى الإصلاح الفردي والاجتماعي، وحيث يكون الضمير صافيا مراقبا لربّه، وهو شرط التّجدّد الاجتماعي. وعلى هذه الصّورة تتمّ القدرة على مواكبة التّطوّر والتحضّر.

إنّ الإمام (عليه السّلام) من خلال الصّحيفة مجدّد بحكم تمسّكه بالقيم الإسلامية الأصلية وبالأفكار النابعة من القرآن الكريم. وهي مبادئ وقيم تتميّز بطاقة خلاّقة تنسجم تمام الانسجام مع طبائع البشر. فلا عجب أن تتضمّن الصّحيفة حلولا للمشاكل الاجتماعية المتجدّدة والمستمرّة في كلّ زمان ومكان. وعليه فالدور

الاجتماعي الّذي تضطلع به الرّسالة هو دور نضالي مؤثر ينهض على المعرفة والخبرة بأسرار الحياة. إنّها فترة زائلة تُغري أصحاب العقول الضعيفة وتغرّهم بمباهجها وحلاوتها، ولكنّ أصحاب العقول الثاقبة والألباب الرّاجحة يزنونها بميزان الآخرة من أجل الفوز برضوان الله وجنته الخالدة.

والصّحيفة تثير قضايا الاجتماع الإنساني وتشخص أزماته وتقدّم الأجوبة الملائمة المناسبة لها. فإعادة بناء العالم تبدأ من إعادة بناء الذّات انطلاقا من الآية الكريمة القائلة: "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ"[7]. وصورة المجتمع المنشود في الصّحيفة تقوم على إعلاء كلمة الله في الأرض. وهذه الكلمة تدور أساسا على الحرّية والعدالة والمساواة. واللاّفت أنّ بني أمية تنكّروا لهذه القيم الإسلامية صريحة. والحقيقة أنّ هذا التّراجع الأخلاقي والقيمي هو الّذي أكّد ضرورة العودة إلى الصّحيفة السّجادية لحلّ مشاكل النهضة الإسلامية المغدورة.

لقد جنح بنو أمية إلى مدح الإسلام كلاما. وذهبوا إلى تهديم صرحه بالفعال، فلم تتوان الصّحيفة في بيان أنّ الكلام وحده لغو، ولاسيّما إذا لم تعاضده الأفعال الصالحة المبرهنة على صدق الإيمان والإخلاص لله تعالى. ففي الأدعية تبرُّؤ من علم لا ينفع وعمل لا ينفع. وهي إحالة واضحة على الاعتقاد الصحيح الّذي لا مدخل للنّفاق فيه بحكم الاحتماء بالله على خلاف المحتمين بالشيطان في عصر الإمام (عليه السّلام).

إنّ المجتمع الإسلامي الّذي يروم الإمام تأسيسه امتدادا للمجتمع الّذي أرسى دعائمه جده النّبي محمّد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) ودعمّه الإمام علي (عليه السّلام) بجهاده وإخلاصه والتزامه بكلمة الحقّ حتّى مع الخصوم الّذين عملوا جاهدين على إحداث ثغرات اجتماعية متتالية أدّى بالأمة الإسلامية إلى التقهقر والتّراجع في سلم الحضارة الإنسانية. فلا غرو حينئذ في التّصريح بالقول: إنّ العودة إلى المبادئ الأخلاقية والاجتماعية بات ضرورة ملحة من أجل إعادة الألق للثّقافة والحضارة.

الخاتمة

لقد حاول هذا البحث الوقوف على أهمّ الأبعاد السوسيولوجية في الصّحيفة السّجادية وما أسّسته من أدوات فعّالة لتحقيق هذه الأبعاد. والمهمّ أنّ العدالة الاجتماعية والمساواة والأخوّة في الإنسانية وفي الدّين مجال اجتماعي حيوي يحتضن الرّسالات الإلهية الّتي بعث بها إلى الأرض عن طريق أنبيائه ورُسله تربية للإنسانية بأسرها أن تعود إلى الله رمز السّلام المطلق. وإذا كان الإنسان عجولا مفضلا للّذي هو أدنى على الّذي هو خير، فإنّه كثيرا ما يطغى وينسى علاقته بالله تعالى. فإنّ المستفاد من الصّحيفة السّجادية أنها علامة فارقة للتّذكير بالدور الرّسالي الهادف إلى الثورة عن الأوضاع الاجتماعية البالية في كلّ المستويات،

[7] سورة الرعد 13، الآية 11.

حيث بدا الإمام (عليه السّلام) حاملا لمسؤولية أمة بدأت تتهاوى أركانها تحت وطاة الانحراف عن الصّراط المستقيم الّذي بيّن الله تعالى أركانه وأسسه في كتابه العزيز، فكان صوته صادحا صادعا بالحقّ وبضرورة العودة إلى الجادّة كي يعود البناء الاجتماعي إلى صرحه المتعالي. وقد أمدّ (عليه السّلام) آليات البناء وأدوات الخلاص، فكانت معالجته منصبّة على الذّات الإنسانية صاحبة الشأن في تحمّل الأمانة الثقيلة الّتي أشفقت منها الجبال والسّماوات والأرض، اعتقاد منه أنّ صلاح الفرد شرط أساسي وضروري في إصلاح الأمة بأسرها. وقد أراد أن يكون هذا الحل ضاربا في أعماق الوجدان وفي أعمق مدى في الأذهان ضمانا لديمومة الصلاح واستمراره. وقد قدّم الدّعاء على أنه وسيلة التّطهير من الأدران والأوثان معلّقا بالله الرحمان وصولا إلى بيان أخطار الظلم الجالب لكلّ آفة.

لقد بدا الإمام (عليه السّلام) من خلال الصّحيفة واحدا من قبيل الّذين يهبهم الله على رأس كلّ فترة من الزّمن يجدّد للأمة دينها، وذلك هو السبب الكافي لمزيد التّأمل في هذه الصّحيفة المكتنزة بالدّرر الثمينة في المستويات الرّوحية، والتّربوية والأخلاقية والاجتماعية.

المصادر

ابن نبي، مالك. (د. ت.). مستقبل الإسلام (ش. بركات، مترجم). المكتبة العصرية.

ابن نبي، مالك. (1974). ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية (ع. ص. شاهين، مترجم؛ ط. 2). دار الفكر.

ابن نبي، مالك. (1979). شروط النهضة (ع. ك. مسقاوي و ع. ص. شاهين، مترجمان). دار الفكر.

ابن نبي، مالك. (1984). دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. دار الراية للنشر والتوزيع.

التواتي، مصطفى. (د. ت.). التعبير الديني عن الصراع الاجتماعي في الإسلام. دار النشر للمغرب العربي.

حق شناس، حميد رضا. (د. ت.). الأخلاق الاجتماعية للصحيفة السجادية. دار دفتر عقل للنشر.

الخميني، روح الله. (د. ت.). الخطب.

زين العابدين، علي بن الحسين. (2001). الصحيفة السجادية الكاملة: من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام (م. ب. الصدر، مقدم؛ ط. 2). مؤسسة الأعلى للمطبوعات. (العمل الأصلي نُشر عام 1422هـ)

الموسوي، علاء إبراهيم المليسي. (2018، 25 ديسمبر). دور الإمام عليه السلام في مواجهة الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية بعد واقعة الطف [مقال إلكتروني].